المكتبات والصحف والطباعة في فلسطين قبل النكبة : حين كانت الكلمة وطنًا



من تاريخ فلسطين الثقافي

فلسطين التي كانت تقرأ: حكاية المكتبات والصحف والمطابع قبل النكبة

من خزائن الكتب في القدس إلى غرف التحرير في يافا وحيفا، تشكّلت حياة ثقافية فلسطينية قطعتها النكبة، وبقيت صفحاتها تشهد على مجتمع صنع المعرفة ودافع عن أرضه بالكلمة.

حين يُروى تاريخ فلسطين من بوابة النكبة وحدها، يغيب أحيانًا العالم الذي اقتُلِع سنة 1948: المدن التي كانت تعمل وتتعلم وتطبع، والمكتبات التي جمع أصحابها كتبها على امتداد أجيال، والصحف التي ناقشت أحوال البلاد وقلق أهلها على مستقبلهم. لذلك فإن العودة إلى تاريخ الكلمة المطبوعة ليست استراحة من التاريخ السياسي؛ إنها اقتراب من المجتمع الذي وقعت عليه النكبة، ومن بعض ما خسره حين فقد بيته ومدينته.

لم تكن فلسطين أرضًا بلا حياة تنتظر من يكتب تاريخها. ترك الفلسطينيون صحفًا ومجلات ومخطوطات ووثائق تحمل أسماءهم وأسئلتهم وأحلامهم. تكشف هذه المواد مجتمعًا متنوعًا، فيه التعليم والأدب والعمل النسائي والنقاش السياسي، وفيه أيضًا اختلافات وتفاوت في فرص التعلم. وتمنحنا المكتبة الخالدية، وسير الصحفيين، وفهارس الصحافة الفلسطينية، مداخل ملموسة إلى هذا العالم. [1] [3] [7]

Vol. XX No 60 - 3251 « السنة العشرون » العدد ٦٠-٣٢٥١

فلسطين
FALASTIN

جريدة يومية سياسية واخبارية وادبية مصورة

صاحب الجريدة
عيسى داود العيسى
محرر الجريدة
يوسف حنا
مدير ادارة الجريدة
داود بندلي العيسى

الاشتراك
في يافا جنيه وربع في فلسطين وشرق الاردن جنيه ونصف وفي الخارج عشرة دولارات امريكية
الاعلانات
اجرة السطر ٥٠ ملا ، الاعلانات الضريبة والمصورة يتفق عليها مع الادارة
مركز ادارة وتحرير الجريدة
العجمي (البرواة) تلفون ٩٤ صندوق البريد ١٩٩

يافا السبت في ٩ ايار سنة ١٩٣٦ Jaffa Saturday 9 May 1936 ١٨ صفر سنة ١٣٥٥

مظاهرة كبرى في يافا يشترك فيها آلاف السكان

كيف استقبل جلالة امبراطور الحبشة وعائلته وحاشيته في مدينتي حيفا والقدس

مظاهرة في طولكرم - المؤتمر الوطني في صحف اليهود - بيان اللجنة العربية العليا - الاضراب مستمر في البلاد كلها

الامة في مؤتمرها الكبير

كلمة العربي اشرف من عهد السياسة

عينوا ضباطا عربيا على القرى العربية

الامة في مؤتمرها الكبير

ليس لانسان ان يعبر ما بغداليوم بالمؤتمر الوطني في الهند ، والوفد في مصر ، والكتلة الوطنية في سوريا ، والثورة الكبرى في العراق ، فلقد شاء الله ان تتماسك وحدة الامة في مؤتمر لجانها القومية ، وان يتجمع المؤتمر بارادة الامة الجبارة ثم يطلقها في وجه المستعمرين الغاصبين كاعظم ما تكون ثورات الامم ، وفورانها الوطنية ، وانفجارانها القومية بعد طول الضغط والارهاق ، فاثبت المؤتمرون بذلك انهم جديرون بثقة الامة ، وتمثيل اتجاهاتها السياسية ، والاعراب عن ارادتها الوطنية

هي موجة من يقظة الوعي الوطني القدسي شاء الله ان يعبر بها العرب في هذا الظرف العصيب ففسلت النفوس من اثار الضعف الانساني ، فتعارفت بعد طول التقاطع وتواصلت للوطن وفي سبيله ، وبحث في فلسطين «القاذية» الشخصية والعائلية وبرزت «القاذية» الوطنية الكبرى على انهما يكون الشعور الوطني ، وارادة الامة والعمل لمصلحة البلاد

اليوم لا حسيني ، ولا نشاشيبي ، ولا خالدي ، ولا غير هؤلاء ، وانما كلهم من الامة وفيها ، يعملون لها في مجموعة وحدتها المتماسكة ، وهذا ما جزع له اليهود ، وفزعوا منه فصدرت صحفهم صباح امس مشحونة بالحملات على ساحة المغني الاكبر ورئيس المؤتمر الوطني ، وعلى الدكتور حسين الخالدي رئيس بلدية القدس لانه اشترك في المؤتمر ووقع سجل قراراته وسعادته ، كما تربده الصحف اليهودية محرم عليه التورط ... في مثل هذه الشؤون ، وبلغ من حقدهم عليه ان قدم مجلس « اغودات اسرائيل » احتجاجا للحكومة في ليلة المؤتمر ... على تصرفاته .

هذا ما استطاعت الامة قوله في اجتماع واحد بفضل تواصلها وتماسكها فكم تراها مستطيعة تحقيقه من امالها الكبار لو انها تمضي في وحدتها الى النهاية ؟

كلمة العربي

اشرف من عهد السياسة

نشرنا في عدد امس ان المستر كراسل ، الذي ترأس المحكمة التي نظرت في قضية المظاهرة الاخيرة في جنين ، قال حين طلب اليه الاستاذ عطا الله تقديم شهود الدفاع ان شهادة الجندي البريطاني كافية ولو تقدم اليه ١٠٠ شاهد عربي لما تزحزح عن اعتقاده في التهمة

والمستر كراسل حر في هذا الاعتقاد ، لا سيما وهو رئيس محكمة يمنعنا قانون « انتهاك حرمة الحاكم » من نقده على ذلك ، الا اننا نحب ان نحيل حضرته الى تاريخ العرب ما كتب منه بالعربية او بالانكليزية ليرى هناك مبلغ حرص العربي على الوفاء بالعهود ، واستهانته بالموت في سبيل حفظ الوعود ، اما الذي نعرفه نحن ويعرفه معنا العالم كله فهو اعتياد الامبراطورية الخلط بالعهود والاخلاف بالوعود ، حتى لقد اصبحت ، لطول مرانها على ذلك ، مضرب الامثال في هذا الشأن ، فاذا اراد عربي ان يعير اخر بنكوله وباخلافه المواثيق قال له :

البقية على الصفحة ٨

كيف استقبل امبراطور الحبشة بحيفا

قطار خاص ينقل مع حاشيته وحرسه للقدس

حيفا في ٨ ايار - لمراسل فلسطين الخاص - بكر الصحفيون ومراسلو الجرائد الانكليزية والافرنسية والاميركية ومصورو السينما بالحضور الى باب الجرك لاستقبال جلالة امبراطور الحبشة وعائلته وحاشيته وقد بلغ عدد الصحفيين الثلاثين ومصوري السينما خمسة وحضر كذلك مراسلو الصحف اليهودية ولم يحضر من الصحفيين العرب غير مراسل هذه الجريدة

وقد حاول الصحفيون الدخول من باب الجرك فمنعهم البوليس لانهم بأخفوا تذكرة من يوم امس

احتياطات البوليس والمستقبلون

وقد اتخذت الحكومة احتياطات كبيرة فلم تصرح لاي كان بالاقتراب من الرصيف الذي تقف امامه المدرعة التي تقل الامبراطور الا الصحفيين والمصورين كما ان البوليس زيادة في الاحتياط كان يطوف كل ساعة ليطلع على تذاكرهم وقد كان وقوفهم امام المنبر نمرة ٣

وقد بكرت الى هناك قوة من الجيش البريطاني عددها ١٥٠ جنديا بموسيقاها ووصل الى هناك المستر غوردن وكيل مساعد الحاكم والمستر شد مدير الجمارك والمستر روجرس مدير الميناء والمستر ماكونيل مدير البوليس وسعادة حسن بك شكري رئيس البلدية وقائد الجيش البريطاني

وصول مدرعه تحمل ثروة الامبراطور

وعند الساعة التاسعة وصلت المدرعة انتريبيد ووقفت على جانب الرصيف بعد ربع ساعة . وقد بوشر عندئذ في انزال الحقائب من المدارعة بواسطة بحارة الاسطول وكان عددها ١٥٠ حقيبة .

ثم بوشر بانزال الصناديق التي وضعت فيها السبائك الذهبية والاموال والادوات الفضية وكانت عددها ١١٧ صندوقا ويقال ان الثروة التي في داخلها تقدر بثلاثة ملايين جنيه وقد اعدت ادارة السكة مربعات لاجل نقل جلالته مع الحاشية والعفش

وقد باشر عملة الجرك بنقل هذه الامتعة والصناديق الى القطار الذي كان واقفا على مقربة منها . وكان بوليس الجرك ومفتش الرصيف السيد اميل سلمو يشرف على ذلك . كما كان بعض الجند الانكليزي باسلحته الكاملة يحافظ عليها

نزول الامبراطورة وابنها

وعند الساعة الحادية عشرة نزلت جلالة الملكة من المدرعة يرافقها ابنها دوق هرر وبعض الحاشية وعند ذلك صدحت موسيقى المدرعة بنشيد الحبشة ثم نزل راس كاسا والرأس دستا وبعض رجال الحاشية والنساء وقد كان امام الملكة وابنها كاب ابيض صغير

وتقدم المستر ستيد والمستر روجرس وحسن بك شكري عند آخر الدرج المتصل بالمدرعة لتحية جلالته كما حياه مساعد الحاكم

الامبراطور يغادر المدرعة شاحب اللون

وعند الساعة الحادية عشرة ونصف نزل جلالته وكان شاحب اللون يرتسم على محياه الالم الشديد وجسمه هزيل وكان يلبس لبسة بيضاء فسلم عليه المستر ستيد و جرس وحسن بك ثم رافقوه فاستعرض فوة الجيش

تخفيض الاعشار عن بئر السبع

ودرس تخفيض الضرائب عن البيارات

جاءنا من مكتب المطبوعات البلاغ الرسمي التالي :

نظرا لجدب المحصولات الشتوية المسبب عن قلة الامطار في قضاء بئر السبع رفع فخامة المندوب السامي مؤخرا توصية الى وزير المستعمرات بان يعفي نصف الاعشار المقطوعة في ذلك القضاء وقد وافق وزير المستعمرات عن هذا الاعفاء

وبذلك تكون القبائل قد اعفيت من دفع ٤٥٠٠ جنيه فلسطيني ووافق وزير المستعمرات ايضا بنا على توصية المندوب السامي على تخفيض ضريبة الاملاك في القرى بمعدل ٥٠ بالمائة عن هذه السنة عن التلال في منطقة الوجه في الغور (وادي الاردن) التي تضررت من جفاف الينابيع بسبب سني المحل اما مسألة تنزيل ضريبة الاملاك في القرى عن الاشجار الحمضية فهي الان قيد البحث من قبل الحكومة وستعلن القرار الذي يتخذ بشأنها فيما بعد

الجنرال وهيب باشا يسافر لمصر

جاء من جيبوتي ان الجنرال وهيب باشا المستشار الحربي لرأس نصيبو قائد الميدان الجنوبي في الحبشة ارسل يطلب من الحكومة المصرية ان تسمح له بالاقامة في بلادها مرة ثانية

استسلام الراس سيوم

اسمرة ٨ - استسلم الراس سيوم الطليان في ساتونا روتر ب.ت.ا

ومن ثم ركب القطار الذي تحرك به قاصداً القدس في الساعة الحادية عشرة والدقيقة اربعين .

وقد كان منظر الامبراطور يدمي القلب ويبعث الكثير من الالم الى النفس

الجماهير تتدافع لتحية الامبراطور

وتدفقت الجماهير على ابواب الجرك نساء ورجالا حتى كان يقدر عددها باكثر من الفي نسمة فلم يسمح لاحد بالدخول الى منطقة الميناء وجاءت قوات كبيرة من الجند اخذت تصد تلك الجماهير واستعمل البوليس كثيرا من القسوة معها

وبادر مكاتبو الصحف الاجنبية الى تطيير البرقيات الى صحفهم حالا اذ كانوا يكتبونها وهم في الميناء على الآلات الكاتبة

قطار الامبراطور لا يقف في اللد

اللد في ٨ ايار - لمراسل فلسطين الخاص - تجمهر عدد كبير من الاهلين في المحطة لتحية امبراطور الحبشة وعائلته عند مروره بقطار خاص ولكن الحكومة كانت اتخذت تدابير خاصة فمر القطار بالمحطة مسرعا ولم يتوقف

امبراطور الحبشة يزور المندوب

القدس في ٨ ايار - لمراسل فلسطين الخاص - زار جلالة الامبراطور وبعض كبار مرافقيه فخامة المندوب السامي هذه الليلة

جريدة «فلسطين» سنة 1936: وثيقة من الحياة الصحفية التي سبقت النكبة. المصدر: سجل الصورة في ويكيميديا كومنز؛ النسبة: Filastin؛ CC BY-SA 4.0. الصورة معروضة دون تعديل.

في هذا المقال

- كيف صارت المطبعة جزءًا من حياة البلاد؟
- يافا وحيفا: صحافة تحمل اسم الوطن وهمومه
- ساذج نصار: المرأة في قلب غرفة التحرير
- أدب وتعليم وصوت يصل عبر الأثير
- القدس: مكتبات تحفظ الذاكرة
- النكبة: اقتلاع القرّاء ونهب الكتب
- استعادة الأرشيف واستمرار الحكاية

كيف صارت المطبعة جزءًا من حياة البلاد؟

قبل أن تتسع الصحافة الوطنية، كانت المطابع قد بدأت تجد مكانها في الحياة الدينية والتعليمية في فلسطين. وفي القدس، تأسست مطبعة دير مار يعقوب الأرمنية سنة 1833، وأنتجت أعمالًا دينية وعلمية وتعليمية. تكشف هذه التجربة جانبًا من تعدد المدينة الثقافي، ومن دور مؤسساتها في نقل المعرفة من المخطوط إلى الكتاب المطبوع. [2]

وفي أواخر القرن التاسع عشر، برزت المبادرات المحلية الخاصة، ومنها مطبعة جرجي حبيب حنانيا التي تؤرخ الموسوعة الفلسطينية تأسيسها في القدس بسنة 1894. ومع اتساع المجال الصحفي بعد إعادة العمل بالدستور العثماني سنة 1908، ازدادت صلة المطابع بالصحف، وانتشرت مؤسسات الطباعة في المدن الفلسطينية. صار وراء الصفحة المطبوعة ناشر ومحرر وعامل مطبعة وشبكة توزيع؛ أي حياة عمل كاملة لا تختصرها أسماء الصحف وحدها. [3]

وكان اتساع الطباعة يعني أن الأفكار تستطيع أن تتجاوز مجلس صاحبها. فالكتاب يبقى بعد انتهاء الدرس، والمقال ينتقل خارج غرفة التحرير، والعدد القديم يعود شاهدًا على ما شغل الناس في يوم صدوره. ومن هنا تبدأ القيمة التي نلمسها اليوم في هذه الأوراق: إنها تحفظ فلسطين كما كتب أهلها عنها، لا كما وصفها من أراد تبرير الاستيلاء عليها.

يافا وحيفا: صحافة تحمل اسم الوطن وهمومه

«فلسطين»: اسم البلاد على ترويسة الجريدة

في كانون الثاني 1911، بدأت جريدة «فلسطين» الصدور في يافا، وارتبط تأسيسها بعيسى العيسى ويوسف العيسى. اهتمت في بداياتها بالنهضة العربية الأرثوذكسية، ثم وسّعت حضورها في الشأن العام والتحذير من المشروع الصهيوني. وكانت يافا، في هذه الحكاية، مدينة تنتج الأخبار والرأي وتشارك في صياغة النقاش الوطني. [3] [4]

واجهت الجريدة التعطيل والملاحقة في العهد العثماني. وبعد الحرب العالمية الأولى، أعاد عيسى العيسى إصدارها في آذار 1921، ثم أصبحت يومية سنة 1930 بحسب سيرته المنشورة لدى مؤسسة الدراسات الفلسطينية. تجمع هذه المسيرة بين مشروع مهني وموقف وطني: متابعة أحوال البلاد، ومقاومة السياسات التي كانت تهدد حق أهلها في مستقبل مستقل. [4]



محررو جريدة «فلسطين» وصحفيوها سنة 1913. المصدر: سجل الصورة، الذي يحيل إلى كتاب عن يوسف العيسى. المصور غير معروف؛ يصف السجل الصورة بأنها في الملك العام في الولايات المتحدة.

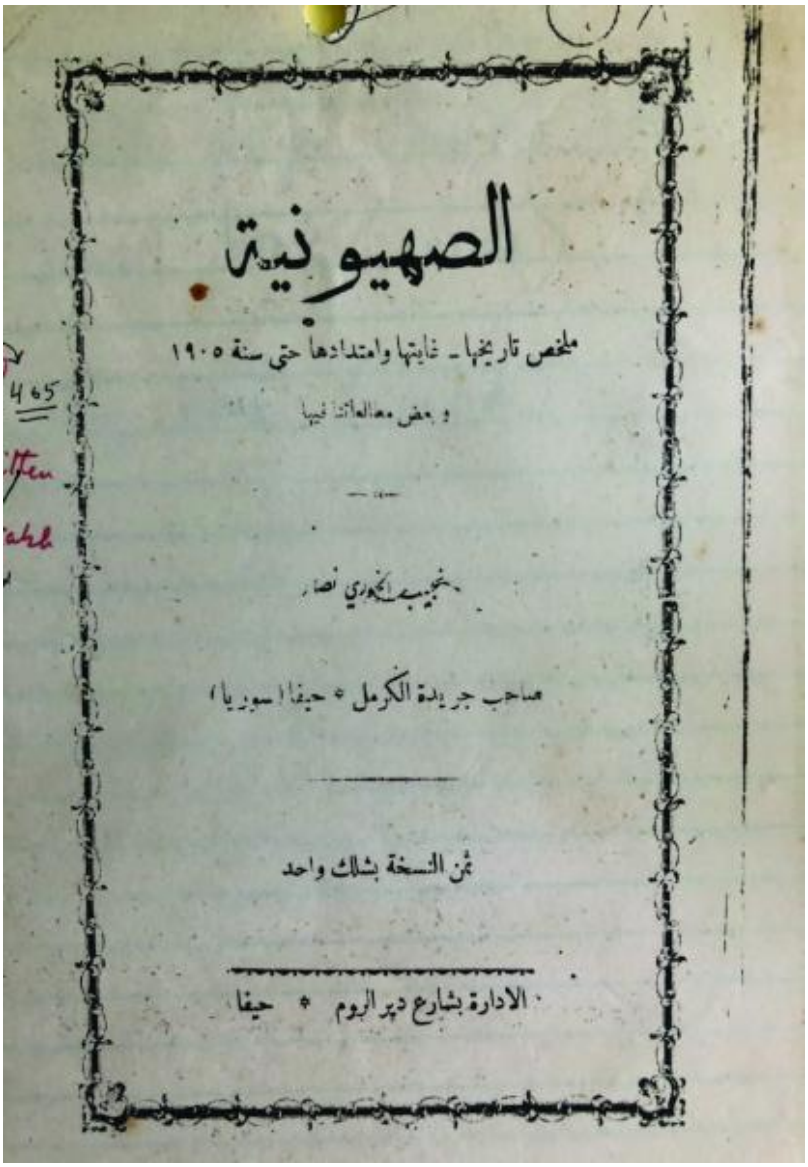
عيسى العيسى، من أبرز وجوه الصحافة الفلسطينية. المصدر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سيرة عيسى العيسى. تاريخ التقاط الصورة غير محدد هنا.

«الكرمل»: مبكرًا، كانت الأرض في صدارة الخبر

وفي حيفا، أسس نجيب نصار «الكرمل» سنة 1908، بعدما اشترى مطبعة من بيروت. ارتبطت تجربته بمراقبة الاستيطان وانتقال الأراضي وأثرهما في حياة الفلاحين، وبالدعوة إلى النهوض الاقتصادي والتعليمي والتنظيم الوطني. كان يرى أن الخطر على فلسطين يتصل بما يجري على الأرض، وأن مقاومته تتطلب معرفة وعملًا اجتماعيًا إلى جانب الموقف السياسي. [5]

وفي سنة 1911، جمع نصار مادة عن الصهيونية في كتيب استند إلى ترجمة وتعليق على ما ورد عنها في «الموسوعة اليهودية». تكمن أهمية هذه الخطوة في محاولة فهم المشروع الذي يهدد البلاد من خلال أدبياته، وتقديم ذلك الفهم للقارئ العربي. وبذلك كانت الصحافة الفلسطينية تتابع وتترجم وتحلل، وتبني خطابها عن الأرض والمستقبل. [5]

نجيب نصار، مؤسس «الكرمل» في حيفا. المصدر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سيرة نجيب نصار. تاريخ الالتقاط غير محدد هنا.



غلاف كتيب نصار الصادر سنة 1911، وعنوانه على هذه النسخة «الصهيونية: ملخص تاريخها غايتها وامتدادها حتى سنة 1905 وبعض مطالعاتنا فيها». المصدر وبيانات الملك العام: سجل الغلاف.

«الدفاع»: جيل آخر من الصحافة الوطنية

شهدت يافا في شباط 1934 تأسيس جريدة «الدفاع» على يد إبراهيم الشنطي. تناولت الشؤون الداخلية ومقاومة الصهيونية والانتداب البريطاني، وانتقدت الخلافات بين الأحزاب الفلسطينية. وتذكر الموسوعة الفلسطينية أنها حققت انتشارًا واسعًا، بما في ذلك في القرى، وأنها كانت مدرسة لصحفيين شباب واصلوا العمل وأصدروا صحفًا خاصة بهم.[6]

تقدم هذه الصحف صورة لوطن كان يناقش مصيره بأصوات متعددة. لم يكن الفلسطينيون كتلة صامتة أو مجتمعًا بلا خلافات؛ كانت لهم اتجاهاتهم السياسية ومطالبهم الاجتماعية ومشروعاتهم الثقافية. وهذا التعدد جزء من حقيقة

الحياة الفلسطينية التي يجب أن تبقى حاضرة في رواية ما قبل النكبة.

ساذج نصار: المرأة في قلب غرفة التحرير

لا تكتمل حكاية «الكرمل» من دون ساذج نصار. بدأت الكتابة في الجريدة سنة 1923، وأسهمت في تحريرها وإدارتها، ثم افتتحت سنة 1926 زاوية «صحيفة النساء». دعت إلى تعليم المرأة وتوفير فرص العمل لها، وإلى المساواة في تربية البنات والبنين، وربطت هذه القضايا بمشاركة النساء في الحياة السياسية ومقاومة الاستعمار. [8]

امتد عملها إلى التنظيم النسائي، فساهمت سنة 1930 في تأسيس جمعية الاتحاد النسائي العربي في حيفا. واعتقلتها السلطات البريطانية أواخر سنة 1938 بتهمة إمداد الثوار بالأسلحة، وبقيت محتجزة أحد عشر شهرًا. واصلت العمل الصحفي حتى إغلاق «الكرمل» نهائيًا سنة 1944، ثم كتبت عن مأساة فلسطين في المنفى بعد النكبة. [8]

تضع هذه السيرة المرأة الفلسطينية في موقع الفعل: تكتب وتحرر وتنظم وتواجه القمع. واستعادة اسم ساذج إلى جانب أسماء زملائها تردّ إلى تاريخ الصحافة جزءًا من اتساعه، وتمنح القارئ صورة أصدق عن المجتمع الذي كان يصنع هذه الصفحات.

ساذج نصار: صحافة وعمل نسائي ونضال وطني. المصدر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سيرة ساذج نصار. تاريخ الالتقاط غير محدد هنا.

أدب وتعليم وصوت يصل عبر الأثير

إلى جانب السياسة، حملت المطبوعات الفلسطينية الأدب والترجمة والتربية وشؤون الحياة اليومية. تورد الموسوعة الفلسطينية أسماء خليل بيدس وخليل السكاكيني وإسعاف النشاشيبي وغيرهم ضمن هذا النشاط. كما يسجل فهرس وكالة وفا دوريات مدرسية وأدبية وحقوقية ورياضية وكشفية وسينمائية؛ ومنها «الحقوق» في يافا، و«روضة المعارف» في القدس، و«الحياة الرياضية» في يافا. [3] [7]

ويكشف هذا التنوع أن الفلسطينيين كانوا يعيشون حياة تتجاوز الاستجابة للخطر السياسي، حتى حين اشتد ذلك الخطر. كانوا يسألون عن التعليم واللغة والحقوق والفن، ويصنعون منابر لهذه الأسئلة. لا تعني هذه الصورة أن فرص القراءة كانت متساوية بين الجميع، لكنها تمنع اختزال المجتمع في الأمية أو غياب المؤسسات.

مدرسة خضوري الزراعية في طولكرم، نحو 1930–1933 بحسب الفهرس؛ شاهد بصري على مؤسسات التعليم في فلسطين قبل النكبة. المصدر: مكتبة الكونغرس، مجموعة إريك وإديث ماتسون، رقم الصورة LC-DIG-matpc-15608. بيانات الاستخدام في سجل المصدر.

وفي سنة 1936، بدأت محطة الإذاعة الفلسطينية عملها، وفتح القسم العربي مجالًا آخر للأدباء والشعراء والموسيقيين. كانت المحطة تحت إدارة حكومة الانتداب، لكن العاملين العرب جعلوا برامجها مجالًا للحضور الثقافي أيضًا. ووصل الصوت إلى مستمعين في المقاهي والأماكن العامة، فدخلت الكلمة المنطوقة إلى المجال الذي كانت الصحيفة والكتاب يساهمان في بنائه. [9]

الكلمة تحت عين الرقابة

لم تتوسع هذه الحياة الصحفية في فضاء حر. يذكر تقرير حكومة الانتداب عن سنة 1934 تعطيل أربع صحف عربية بموجب قانون المطبوعات لسنة 1933، لفترات تراوحت بين أسبوع وثلاثة أشهر. وهو تقرير الإدارة البريطانية نفسها، محفوظ اليوم في أرشيف الأمم المتحدة. بذلك يصبح التعطيل واقعة موثقة في سجل السلطة التي مارسته. [10]

تكشف الرقابة الثمن الذي دفعته الصحافة مقابل حضورها. ففي كل قرار تعطيل تتوقف مع الأخبار أرزاق العاملين وصلة القراء بمنبرهم. ومن منظور فلسطيني، تساعد هذه الوقائع على فهم الكلمة بوصفها جزءًا من مواجهة السيطرة على البلاد وعلى ما يستطيع أهلها قوله عن مستقبلها.

مشهد من يافا في صيف 1936، ضمن السياق الذي عاشت فيه الصحافة الفلسطينية الإضراب والثورة؛ الصورة لا توثق قرار تعطيل صحيفة. المصدر: مكتبة الكونغرس، مجموعة ماتسون، رقم LC-DIG-matpc-18024. بيانات الاستخدام في سجل المصدر.

القدس: مكتبات تحفظ الذاكرة

الخالدية: كتب العائلة تفتح أبوابها للقرّاء

في طريق باب السلسلة بالبلدة القديمة في القدس، تأسست المكتبة الخالدية سنة 1900 بمبادرة الحاج راغب الخالدي. يصفها موقعها بأنها أول مكتبة عامة عربية تأسست بمبادرة خاصة في فلسطين. فقد تحولت مجموعات عائلية تراكمت عبر الأجيال إلى مؤسسة تتيح المعرفة للقرّاء، وتربط حفظ الكتب بخدمة المدينة. [1]

تضم الخالدية مخطوطات ومطبوعات وأوراقًا عائلية، ويحمل مبناها المملوكي ذاكرة أقدم من تاريخ افتتاحها. وفي هذه الصلة بين المكان والكتاب تظهر القدس مدينة للمعرفة أيضًا: لها علماء وأوقاف ومراسلات ومجموعات تتوارثها الأسر وتحافظ عليها. [1]



صورة تنسبها المكتبة الخالدية إلى افتتاحها سنة 1900، ويظهر فيها راغب الخالدي وعلماء آخرون. المصدر الأصلي المعروض: الموقع الرسمي للمكتبة الخالدية؛ تنسب المؤسسة الصورة إلى مجموعة المستعمرة الأميركية.



رسم لمدخل المبنى الذي أصبح مقر الخالدية، منشور سنة 1864 في Jerusalem Explored؛ يسبق تأسيس المكتبة. النسبة: Ermete Pierotti وT. G. Bonney. المصدر وبيانات الملك العام: سجل الرسم.

مكتبة الأقصى: امتداد خزانة قديمة

تُرجع إدارة أوقاف القدس جذور خزانة كتب المسجد الأقصى إلى العصر الأيوبي. وفي سنة 1922، أعاد المجلس الإسلامي الأعلى افتتاح المكتبة، وجمع مخطوطاتها وأضاف إليها كتبًا ومخطوطات ونقلها إلى المدرسة النحوية. كانت هذه محطة في تنظيم المكتبة الحديثة، ضمن تاريخ أطول لحفظ الكتب في الأقصى. [11]

وإلى جانب المؤسسات، كانت مكتبات البيوت جزءًا من عالم الكتاب الفلسطيني. وتمنح خسارة مكتبة خليل السكاكيني في النكبة هذا العالم وجهًا إنسانيًا مؤلمًا: فالكتب تحمل أثر صاحبها، وما قرأه وكتبه وجمعه، وتصبح خسارتها خسارة جزء من حياته. [12]

النكبة: اقتلاع القرّاء ونهب الكتب

حين وقعت النكبة سنة 1948، اقتُلِع الفلسطينيون من مدن وقرى، وتفككت معهم شبكات العمل والتعليم والنشر. توقفت «فلسطين» عن الصدور في يافا في نيسان من ذلك العام، ثم استأنفت صدورها لاحقًا خارج مدينتها. وتوقفت «الدفاع» في يافا أيضًا، وانتقلت في مرحلة تالية إلى القاهرة ثم القدس. بقيت بعض الأسماء الصحفية، لكن الجغرافيا الاجتماعية التي حملتها تعرضت للاقتلاع. [4] [6]

ولم تقتصر الخسارة على توقف المؤسسات. تورد الباحثة الفلسطينية سمر سعيد، في مقال منشور لدى مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورجتاون، نهب نحو **30 ألف كتاب ومخطوط من منازل الفلسطينيين المهجّرين من القدس الغربية** خلال النكبة، وتذكر مكتبة خليل السكاكيني بين المجموعات المنهوبة. كما تورد تقديرًا أوسع يقارب 70 ألف كتاب في النكبة عمومًا؛ وهما تقديران مختلفا النطاق، لا رقمان يُجمعان معًا. [12]

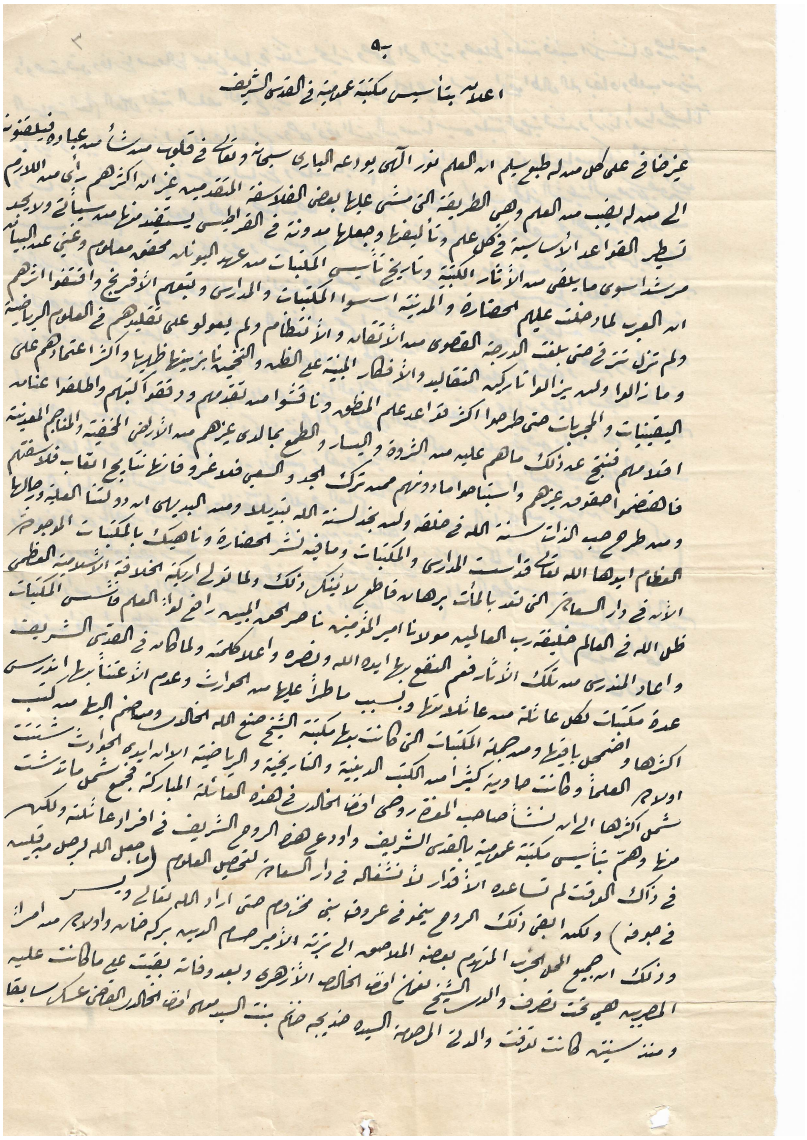
في هذه الواقعة يتضح البعد الثقافي للنكبة. فالتهجير يفصل القارئ عن مكتبته، ويترك أوراقه في متناول من استولى على بيته. وحين ننظر إلى الكتب باعتبارها أثرًا لأصحابها، يصبح السؤال عن مصيرها سؤالًا عن الملكية والذاكرة معًا: لمن كانت؟ وكيف انتقلت؟ وأين بقيت آثار الأسماء التي حملتها؟

هذا هو المنظور الذي ينطلق منه المقال: الثقافة الفلسطينية كانت حياة يصنعها أصحابها، والضرر الذي أصابها جزء من اقتلاعهم من أرضهم. وحفظ كتاب مسلوب في مؤسسة لاحقة لا يمحو قصة صاحبه، كما أن بقاء عنوان صحيفة بعد انتقالها لا يلغي المدينة التي أُجبر أهلها على مغادرتها.

استعادة الأرشيف واستمرار الحكاية

تمنحنا الأرشيفات اليوم فرصة لإعادة وصل بعض ما فرّقته النكبة. في الأرشيف الرقمي للمتحف الفلسطيني تُحفظ صور ووثائق ومجموعات شخصية، وفي موقع الخالدية نجد تاريخ المؤسسة ومداخل إلى مجموعاتها، وتتيح الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية سيرًا ووثائق تساعد على استعادة الأشخاص والمؤسسات إلى سياقهم. [1] [13] [14]

والرقمنة خطوة مهمة لأنها تجعل الوصول إلى الوثيقة أوسع، لكنها لا تعوّض خسارة الأصل ولا تختصر حق أصحابه في قصته. الأرشيف الذي نحتاجه يُبقي اسم الفلسطيني واسم بلدته وصلة الوثيقة بحياته؛ فلا تتحول صورة المدرسة إلى مشهد بلا مجتمع، ولا صحيفة يافا إلى ورق منفصل عن المدينة التي أنجبتها.



باب الخالدية ولوحتها التعريفية: استمرار الاسم والمكان. صورة منشورة في الموقع الرسمي للمكتبة؛ تاريخ الالتقاط غير محدد، ولا تُقدّم بوصفها صورة من مرحلة ما قبل النكبة.

تترك لنا هذه الحكاية فلسطين بأسماء أهلها: حنانيا في مطبعته، والعيسى في جريدته، ونصار وسازج في «الكرمل»، والخالدي في مكتبته، والمعلمون والقرّاء وراء الأسماء المعروفة. كانوا يصنعون حياة ثقافية لها أسئلتها وطموحاتها. وحين نعيد قراءة ما تركوه، نستعيد صوتهم في رواية وطنهم، ونرى بوضوح أكبر ما اقتلعته النكبة وما أصر الفلسطينيون على إبقائه حيًا.

محطات من الحكاية

تواريخ مختارة في تاريخ المكتبات والصحافة والطباعة الفلسطينية

السنة	المحطة	المصدر
1833	تأسيس مطبعة دير مار يعقوب الأرمنية في القدس.	[2]

السنة	المحطة	المصدر
1894	تأسيس مطبعة جرجي حبيب حنانيا في القدس.	[3]
1900	تأسيس المكتبة الخالدية.	[1]
1908	تأسيس «الكرمل» في حيفا واتساع المجال الصحفي.	[3] [5]
1911	صدور «فلسطين» في يافا وكتيب نصار عن الصهيونية.	[4] [5]
1922	إعادة افتتاح مكتبة الأقصى وتنظيم مجموعاتها.	[11]
1926	افتتاح «صحيفة النساء» في «الكرمل» بإشراف ساذج نصار.	[8]
1934	تأسيس «الدفاع» في يافا؛ وتوثيق تعطيل أربع صحف عربية في تقرير الانتداب.	[6] [10]
1936	بداية محطة الإذاعة الفلسطينية.	[9]
1944	إغلاق «الكرمل» نهائيًا على يد سلطات الانتداب.	[8]
1948	النكبة، واقتلاع مؤسسات النشر ونهب مكتبات فلسطينية.	[4] [6] [12]

المصادر والمراجع

1. المكتبة الخالدية — تاريخ المكتبة، الموقع الرسمي.
2. Arman Khachatryan — The St. James Armenian Printing House in Jerusalem: Scientific and Educational Activities, 1833–1933، فصل منشور لدى بريل، 2018.
3. الموسوعة الفلسطينية — الصحافة العربية.
4. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية — عيسى العيسى، بقلم ماهر الشريف.
5. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية — نجيب نصار، بقلم ماهر الشريف.
6. الموسوعة الفلسطينية — الدفاع (صحيفة).
7. وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية «وفا» — صحف ومجلات ونشرات عربية صدرت في فلسطين في فترة الانتداب البريطاني 1917–1948.
8. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية — ساذج نصار، بقلم ماهر الشريف.
9. مؤسسة الدراسات الفلسطينية — محطة الإذاعة الفلسطينية، 1936–1948.
10. الأمم المتحدة، منظومة UNISPAL — تقرير حكومة الانتداب إلى عصبة الأمم عن سنة 1934؛ فقرة الصحافة.

11. إدارة أوقاف القدس وشؤون المسجد الأقصى المبارك — مكتبة المسجد الأقصى.
12. Samar Saeed — Scholasticide in Gaza، مركز الدراسات العربية المعاصرة، جامعة جورجتاون، عدد خريف 2023–ربيع 2024؛ الفقرة المتعلقة بنهب الكتب خلال النكبة.
13. المتحف الفلسطيني — الأرشيف الرقمي.
14. مؤسسة الدراسات الفلسطينية — الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية.